القضاء على القضاء

كلمة للدكتور الفيلسوف المرحوم شبلي شميل حمل فيها على القضاء مبينا بالبراهين ما ينجم عنه من الاضرار الاجتماعية من حيث الاسس القائم عليها فاحببنا اثباتها ليطلع عليها قراء الحقوق . والدكتور شميل ليس من يجهله من قراء العربية فقد كان علماً من الاعلام ومؤلفاته بين ايدينا تغنينا عن فضل الرجل فليس ادل على مكانته منها .

محرر

انما خلص الانسان من تسلط علم اللاهوت وامتيازات الرؤساء
من وضع في مسائل المبدأ وادعى وضع علم الحقوق او اللاهوت
الاجتماعي كما صار اليه اليوم والصورة التي يتخذها تقرر هنا
الرؤساء . [illegible] يكون موقفا جديداً للأمة في طلب الاجتماع
والمنفعة الى الحق بطلاقة . ولكن اليوم الذي سنطالب
الاجتماع فيه وبرده الى شكله الجديد سيكون منه [illegible] ايضاً
اذ تصرف القوى العاملة فيه بدقة الى تحويله نحو التقدم
السريع وارتقائه الارتقاء الحقيقي .

« لو انصف القاضي استراح الناس »

اليك ايها القارىء العاقل والعاقل المتأمل . لا اطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة بليغة بل اطلب منك عقلاً حلت قيوده وتفتحت منافذه واقام التفكر مقام الاعتقاد والبحث مقام التقرير يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا يبخس مستنبطات العقل حقها . اعرني سمعاً قابلاً . ولا اكلفك جدالاً ولا اقبل ان ترميني بالاغراب لاستغرابك

عنوان مقالتي وتقول من ذا الذي يريد قلب الموضوع وتغيير المطبوع لاني كل يوم اقلبه اذ معك تركت وسرت مني شوطاً غير بعيد في هذا البحث الاختباري لانه يرضي بالوقوف عند الحد الذي وقفتك عنده تعاليم ، علموا الناس على ما بهم من الجهل والغرابة ، ادخلوها الى عقولهم بالارهاب والترغيب حتى رسخت فيه ، وصارت في اعتقـــاده قضايا مسلمة لا تقبل التغيير ، وجرت على السنة الناس مجرى الامثال واتخذوها من الحكم المقررة وهي لا تحصى لكثرتها وهي من نسيج العنكبوت يرفعها التمحيص تزييفاً ، لا تثبت على محك الانتقاد بل لو دققت البحث فيها حيناً لاستغربت جداً كيف يستطيع العقل ان يقبل هذا القول ، ويحيد عن جادة الحق ، والامثلة التي امامه من الطبيعة كثيرة ترشده الى خلاف ذلك وتدله طريق الصواب . والطبيعة هي الكتاب الوحيد الاول الذي ينبغي ان نعول عليه وان نرجع في احكامنا اليه

جرى على السنة الناس مجرى الامثال قولهم ولو انصف الناس استراح القاضي ، وربما لم يخطر على بال احد انه سيقوم اناس يعتبرون مثل هذا القول خطأ ويرون الصواب في عكسه ويؤيدون قولهم بدلائل تنطبق على العلم ، يقبلها العقل ولا يجرحها الا كثرة عدد الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع والراقد على اديم التواتر .

والفلاسفة الحكماء لا يهمهم ذلك ولو لحقهم منه صدمة قوية

زعزعت أركان مصالحهم، ولكنها لا تستطيع شيئاً على افكارهم. والمستقبل لهم أي لمبادئهم هؤلاء الذين يقولون: لو انصف القاضي استراح الناس، ويريدون بالقاضي هنا القضاء عموماً لا الاحكام الخصوصية التي يصدرها القضاء احياناً كثيرة، وتكون عرضة للانتقاد كحكم المحاكم الاهلية في قضية الاختلاس الذي وقع في احدى مصالح الحكومة اذ أنشد نحوي مجالاً بقوله

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ، وتتقي مربض المستأسد الضاري

خففت العقاب على المرتكب الاصيل، وشددته على الشريك.

فمثل هذا الحكم لا يوجد له لفظة تقوم بوصفه في قاموس اللغة الفصحى ولا يوجد له ذلك الا في اللغة العامية واللغة المالية. لا غنى تعبر احياناً كثيرة عن معان لا تصل اليها اللغة الفصحى فالعامة تطلق على مثل هذا الحكم اسم — حكم كريوبي — وربما لا يعدم العلماء وصفاً لمثل هذا الحكم ينطبق على علم الاعصار الحديثة فاطلقوا عليه اسم (حكم هستيري) فمثل هؤلاء الناس يعتبرون ان عدم الانصاف كائن في القضاء نفسه وهو سبب متاعب الانسان في العمران.

فالقضاء هو احدى الشريعتين العظيمتين اللتين تتوليان اسعاد الهيئة الاجتماعية وهما الشريعة الدينية والشريعة السياسية فبحسب حال هاتين الشريعتين تكون حال الانسان في العمران.

وقد انقضى الزمان الذي كان الجهل سائداً فيه على العقل والذي كان الانسان يقول فيه :

اذا قلت المحال رفعت صوتي ، وان قلت الصحيح اطلت همسي

فليس للانسان شرائع منزلة الا ما ارتجله عليه من الخرافات والاوهام فشرائع الانسان من صنع الانسان وهي تابعة لحاله من الانحطاط ، والارتقاء حقيقة توجب الفخار لقائليها بمقدار ما تجلب العار على مفاسدها

فالعقاب الذي هو اساس الشرائع عموماً والقضاء خصوصاً اثر من آثار الهمجية ، بقية من بقايا توحش الانسان الاول وما دام هذا المبدأ الفاسد اساس القضاء فاصلاح الهيئة الاجتماعية به امر مستحيل بل اذا دققنا النظر جيداً وجدنا انه سبب الشرور الكثيرة في العمران كالقتل والسرقة وخصوصاً الكذب الذي هو اصل كل الشرور وان لم يكن سببها الحقيقي فهو السبب المساعد على انتشارها كما هو لائح . انا لا نرى هذا الكثير من الجنايات في الارض الا لتضافر كل شيء على جعل البشر اشراراً من حال دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر فمتى ينفع تعليم الفضيلة التي تذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايته وتقلل قدر المسيء واساءته ، ولا تقاص اقبح الذنوب الا اذا كان مرتكبوها صعاليك لان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك بذنوب

ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كباراً وكثيراً ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتقرير شأنها

فان هذه الشرائع التي لم ينظر فيها الا الى العقاب للانتقام وهذه المعاملات التي لم يقصد منها الا القسوة للارهاب هي التي ولدت اكثر الصفات الرديئة في البشر . ولا نرجع الى العصور الخاليه . فنفتش قبور الذين عذبتهم الغايات السياسية والمصالح الدينيه ليس من الافراد فقط بل من الجماهير والامم لنثبت صحة هذا القول بل ننظر الى عصرنا الحالي عن الطمع الشديد المستحوذ على اهله . والجنوح فيه الى استعمال الحيل والخداع والكذب دليل على انحطاط في تقرير الحقيقه والصدق وارتقاء مخيف في نمو الكذب وعلى من الذنب أليس على الهيئة الاجتماعيه نفسها أليس الاطناب في تعظيم هذه الرذائل والارشاد اليها جريا على الالسنة مجرى الحكم كما في قول الشاعر

ان لم يكن عندك حظ * فليكن عندك حيله

وما هي الحيلة يا ترى أليست الخداع . وما هو الخداع أليس الكذب وبلسان من عبر الشاعر بقوله :

والصدق ان القاك تحت العطب * لا خير فيه فاعتصم بالكذب

أليس بلسان الهيئة الاجتماعية نفسها حتى صار الكذب شيئاً

لازمة في الهيئة الخصوصية كما في الهيئة الاجتماعية في صناعة الحب كما في صناعة الفكر على [illegible] الذين علة الانسان ان يكد [illegible] حالته في الصحة [illegible] لانا [illegible] عنه ما يحتاج اليه [illegible] في [illegible] على الهيئة الاجتماعية وهو الذي [illegible] وهذه الهيئة التي [illegible] ذلك [illegible] الى ذلك هي التي [illegible] ما [illegible] بالمادة ومكنته [illegible]

والوسائل [illegible] الكبرى [illegible] القتل والحبس والتعذيب وهذه العوامل [illegible] الثلاثة [illegible] القضاء على الهيئة الاجتماعية التي وكلت اليه صيانة مصالحها . [illegible] في هذه العوامل الثلاثة من آثار التوحش [illegible] الآخر من التعذيب الذي كان [illegible] في عصور البشرية قد زال من اكثر الممالك المتمدنة . وفي القتل [illegible] السجون [illegible] بعد ان كان الجاني يلقى في اعماق السجون المظلمة محجوبا عن الهواء والنور اللذين من [illegible] على الاخيار والاشرار صار يسمح له بان يرى النور ويستنشق الهواء . وهذا الاصلاح الطفيف [illegible] الذي يفتخر به القضاء اليوم هو عار على [illegible] ووصمة تخجل منها الانسانية ولا يستطيع [illegible] به اقل الاصلاحات التي حصلت في اقل الفروع [illegible] التي تهم الهيئة الاجتماعية . وما دام القضاء لا يتخذ مبدأ له

دفع الشر عن الهيئة الاجتماعية وهو صيانة مصالحها وتمهيد طرق اصلاحها

وبما يكون دفع هذا الشر وتوفير هذا النفع ? بالاعدام الذي هو نقص في الشرائع كما ان البتر نقص في الطب ولا علاج له الا اذا تعذر الاصلاح ثم بالتعذيب وبالاشغال الشاقة وهي معاملة خشنة تمكن الانسان من الاخلاق الوحشية وتبعده عن الانسانية ام بالسجون التي هي قبور في الحياة لا يكتسب الانسان فيها الا فساد صحته من سوء الغذاء وقلة الهواء والنور والنظافة وفساد اخلاقه ايضاً من سوء المعاملة وعدم الاعتناء بالتربية الحسية ? أكل الانسان ويشرب وينام وقد يجتر كالحيوان ويقل عنه في انه لا يعمل عملاً مفيداً او يكتسب عملاً مفيداً سقوفها تقطر الندى وارضها تنبت الفطر وجدرانها تشف عن الرذائل أفي مثل هذه الاماكن المعدة في الاصل للانتقام نأمل ان نصلح الجاني وان نوفر نفعه للهيئة الاجتماعية كلا ثم كلا فالهيئة الاجتماعية العالية واي ظلم اذا كنا نظن انها تطلب منا ان نقتص لها من جناتها انتقاماً منهم حاشا ثم حاشا ان تطلب ذلك من نفسها عند قصدها وهي في صحة عقلها . بالحقيقة من هم الجناة أليسوا من الافراد الذين يؤلفون الهيئة الاجتماعية نفسها . فلقد انقضت تلك العصور الخشنة عصور الجهل التي كانوا يتناولون فيها مصالح الافراد ولا يدركون فيهم الا كأن ليس لهم حق في هذه الحياة الاستقلالية . ليس لهم شأن

في الحياة الاجتماعية ولا يستحقون رحمة بهم ولا عطفاً عليهم من الانسانية ولكن نور العلم الوهاج الذي يزداد كل يوم نوراً والذي هو نبراسنا الساطع في ظلمات هذا الوجود ودليلنا الذي لا يضل في مجاهل هذه الحياة آخذاً في تمزيق جلابيب الضلالات التي اورثتنا الجهل وكل يوم يهتدي به العقل الى تفهيم شأن الافراد في الاجتماع الانساني كما هو شأنهم في الاجتماع الطبيعي لتأييد دعائم الاقتصاد السياسي الذي هو نوع من الاقتصاد الطبيعي لان الافراد هم الاساس الذي تبنى عليه المجموع وتنشأ منه الجماهير وتتألف منه الهيئة الاجتماعية ولهذا فحقوق الافراد عين حقوق الهيئة الاجتماعية نفسها.

ومن يتذكر ان السجون في حالتها الحاضرة هي منشأ اجرام الرذائل وكل الشرور التي تحصل في الهيئة الاجتماعية فلا شك انه من القبح على جانب عظيم. وانه لعار على القضاء ان يكون الاخير في الاستفادة من مكتشفات العلم والصناعة وسائر معدات التمدن ومثلا ارى بجسارة ولا تحامل اقول لنقابل بين المستشفيات في الماضي ومعاملة المرضى فيها والمستشفيات اليوم ومعاملتهم فيها وبين السجون في الماضي والسجون اليوم ومعاملة المسجونين فيها. فقد جاء في الكورسبوندانس مديكال بتاريخ ٣١ مايو من هذه السنة عن المستشفى المعروف باوتيل ديو بباريز الذي هو اقدم مستشفيات اوروبا فانه انشئ في سنة ٦٥١ نقلاً عن تقرير تنون في سنة ١٧٨٦ ما نصه.

وكانوا يطبخون في قاعات المرضى الطعام المعد لهم وكانوا يضعون عدة اشخاص في سرير واحد حتى كان الداخل اليها يكاد يختنق ،

بل ننظر الى معاملة المجانين في المارستانات في الماضي كيف كانوا يضربون ويجلدون ويهانون ثم ننظر الى ما صارت اليه المستشفيات والمارستانات اليوم من الاتقان البالغ الغاية القصوى من توفير اسباب الراحه والاعتناء بالصحة حتى صارت تحاكي قصور الملوك لننظر الى ذلك ونقابله بحالة السجون والمسجونين في كل المعمور وهل توجد نسبة بين الاصلاح المعيب الذي حصل في السجون والاصلاح البالغ الغايه في المستشفيات والذنب في ذلك كله من أليس هو القضاء نفسه الذي لم يعرف ان يستفيد من اتعاب الانسانية كما استفاد سواه بل الذي لا يزال متمسكا بالقديم المنتقل اليه من عصور غلب جهلها على علمها معتبراً انه ما وجد الا للارهاب والعقاب والانتقام وهو بذلك يزيد مصائب الهيئه الاجتماعيه خلافاً لما يطلب منه وهو اصلاحها وتخفيف ويلاتها كأن اهل السجون لا يستحقون هذه العناية فكيف استحق مرضى الاجسام اعتناء رجال الفضل والحكومات بهم ولا يستحق مرضى الاجتماع منهم ذلك لان اهل السجون ليسوا بالحاضر الا مرضى في الهيئة الاجتماعيه سواء كان بالمعنى الحقيقي او بالمعنى المجازي ،

بل اهل السجون هم مرضى بالمعنى الحقيقي مرضى في عقولهم

مرضى في شهوة ٣٣ مرضى في الارادة ٣٣ مرضى في الوجدان ٣٣ المعرفة فمعلوم لكل ذي عقل ولا يحتاج الى اقلاق العلماء والاستشهاد باقوالهم لاثبات ذلك ان اصحاب الجرائم قسمان قسم يرتكب الجرم لقصد الكسب او شهوة اخرى. وقسم يرتكب الجرم مندفعاً اليه باسباب اقوى منه من دون ان [illegible] تعصر في العراك فلا [illegible] يسرق ويقتل ويرتكب الفحشاء ولا يستطيع القضاء على ان يمد اليه يداً لانه عاقل يتخذ الاحتياطات اللازمة لستر جريمته فهو المسئول عن عمله والذي يجب على القضاء ان يهتم فيبحث عنه لا في السجون وعلى مصاطب المحاكم بل في القصور في حجر الرفاه وهؤلاء المجرمون ليسوا كلهم في السجون كما ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات وليس منهم في السجون الا المرضى بالمعنى الحقيقي وعوضاً عن ان نعاملهم كما نعامل اخوانهم في المستشفيات نراهم ظاهرين فوق رؤوسهم سيف ديموقليس في سيف النقمة للانتقام منهم وهم اولى برحمة الطبيب.

اقول اولى برحمة الطبيب. ولا ابالي ولو عارضني معارض فطلب لنفسي من ارباب العلم والذكاء الوف كل واحد يقابله آلاف من ابي الطب ابوقراط المتوسد في لحده من عصور طويلة الى شاركو وبال ولمبروزو من مشاهير علماء هذا العصر واشياعهم الذين يعدون اليوم بالآلاف وخصوصاً هذا الاخير الذي يرأس المدرسة الحديثة التي تعد من طائفة المجرمين فلنسمع ماذا يقول شركاء مشترعي الامس

ومصروعي اليوم الذين كثيراً ما يصيرون مجرمين . فقد كان الناس في العصور الخالية يعتبرون المستيريات «اي المصابات بالهستيريا وهو مرض عصبي واللواتي يعملون لهن الزار في هذه البلاد» ان بهن شياطين فكانوا يحاولون اخراج هذه الشياطين بكل ما لهم من الوسائل الدينية والسحرية فان لم تنجح عمدوا الى تعذيب الاجساد التي كانوا يزعمون ان الشياطين حالة فيها بكل انواع العذاب كالجلد والتقليب على شوك الحديد والحرق بالنار بعد ان كانوا يقيدونها بسلاسل الحديد ويلقونها في اعماق السجون المظلمة هذا ما كان يفعله رجال الدين ورجال السياسة بمثل هؤلاء المساكين قبل شركو ومن تقدمه من افاضل المصلحين وما كان عدد المتشيطنين ليقل بهذه المعاملة الوحشية واما اليوم فمن فضل شركو الذي افاد الانسانية من هذا القبيل في سنين قليلة اكثر من كل الشرائع قبله صاروا يعتبرونهن من طائفة المرضى الذين يجب الرفق بهم ومعالجتهم في المستشفيات البالغة الغاية القصوى من الاتقان وما زاد عدد المتشيطنين بهذه المعاملة الحسنة بل قل جداً مما يدل على ان الشياطين انفسهم يفضلون الملاطفة اكثر منهم المخاشنة.

وبات يعلمنا ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات فان افعال العقل المختلفة قد تختل من جهة مع بقاء الجهات الاخرى سليمة مما يمكنهم ان يعيشوا بين الناس بحالة لا تختلف ظواهرها عن حالة العقل السليم فاذا طرأ عارض هيج الجانب الضعيف ظهر الاختلال في العقل وربما جر ذلك صاحبه الى ارتكاب الجناية وسيق الى المحاكم. قال

«مارسليه»: «يوجد بين الذين نحكم عليهم الآن كم عدد كبير من المختلي الشعور، اذا دققنا النظر نجد ان اكثر الجرائم صادرة عن اناس غير مسئولين فالمتوهون وضعفاء العقول، الذين بينهم حؤول وراثي واصحاب الصرع واصحاب الهذيان الاجرامي قد يصيرون مجرمين اذا عرضت لهم الفرص بسبب ما بينهم من الخلل في القوى العقليه وهذه الفرص كثيرا ما تعرض لهم فيغتنموها»

ولا ريب بانه سيكون للمبروزو في المستقبل في اصلاح المجرمين نفس الفضل الذي كان لشركو في معاملة اصحاب الامراض الهستيريه ولا نبعد كثيراً عن الزمان الذي سيضطر فيه القضاة ان [illegible] دروسهم الشرعيه بالاقامه مدة في مستشفيات الامراض العصبيه ليروا باعينهم ويجسوا باصابعهم وجع الانسان ليعرفوا كيف يجب ان يحكموا فيها

والحاصل مما تقدم ان القضاء ما دام اساسه العقاب وما دامت السجون لا تتحول الى مدارس تعلم فيها الصناعات وتهذب فيها الاخلاق وتحول فيها قوى المجرمين الى منافع والى مستشفيات يعالج فيها مرضى الاجتماع كما يعالج فيها مرضى الاجسام مدارس ومستشفيات بالغة الغاية القصوى من الاتقان فهو عار على الانسانيه وعقبه كبرى في سبيل اصلاح الهيئة الاجتماعيه.